العرب
الأحد 2019/09/29
السنة 42 العدد 11482

أصوات النقد

عائشة الأصفر
روائية ليبية

عندما اخترع الإنسان الكتابة قبل الميلاد بألوف السنين، مستعملا المسامير في الرسم للتعبير عمّا بداخله، أرادها لغة يتواصل بها مع الآخر، وليخبئ فيها نتاجه التاريخي الثقافي والمادي من الضياع، وعندما اخترع الأبجدية وظهرت "التيفناغ"، كانت مهمة الكتابة منوطة بالمرأة خاصة، ولد الإنسان في الحياة دون تجنيس للمهام، وجد الحياة خاما طاهرة من كل فكر إلا فكر الطبيعة الحر، تفرض الطبيعة قوانينها الحتمية متنقّلة بين السبب والغاية، بطريقة تفرضها صيرورة قوانينها، دخلها الإنسان مع طبيعتها بقانون الغاب، فسار به إلى صيرورته ليتمدّن ويتطوّر ويفرض عليه واقعه طريقة تفكير تتلاءم ودرجة تمدّن هذا الواقع وثقافته وأخلاقه، لترتبط النظرة للمرأة الكاتبة العربية حسب الموروث والثقافة المحيطة.

إذا كانت الكتابة صوت الإنسان،

لم تعد «قضية المرأة» هي هاجس المرأة الواعية بمسؤولية الأدب والكتابة، صار هاجسها الإنسان والحروب والتمييز العنصري والفساد والعنف والمهجرين والإرهاب بشقيه الفردي والدولي

ستكون كتابة المرأة في المجتمع كما يرى صوتها في الواقع، هنا ستنتج لنا خيارين، إما كتابة عوراء محاصرة وحيية لغة وموضوعا، وإما كتابة متمردة تصرخ للخروج من نفق الانغلاق، فبدأ نتاجها خجولا كمّا ونوعا لا يخلو من استثناء، ولأن الكتابة في حد ذاتها ثقافة، ولأن الكتابة لم تكن من ثقافتنا، ولم تكن ظاهرة في مجتمعنا كما لم تكن القراءة، نأت بعض النساء عن الكتابة دون أسباب مع توفر ظروفها.

بدأت المرأة العربية منتصف القرن العشرين تعبر عن ذاتها ومشاعرها وطموحها البسيط، وعن الظواهر الاجتماعية السلبية، والسير والأحداث التاريخية، ثم لتعبر الكاتبة بمسؤولية أكبر عن ذوات ورغبات غيرها، وتجتازها الأكثر تحررا إلى رغبات الإنسان أيّا كان، وتعرّي المسكوت عنه. استهلت الكتابة بشخصيات واتتها ظروف تنويرية، فظهرت كاتبات أدب وشاعرات، منهن: مي زيادة، سهير القلماوي ، عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ)، فدوى طوقان، نبيلة إبراهيم، نوال السعداوي، غادة السمان، رضوى عاشور، مرضية النعاس، وأخريات، لتملأ اليوم الساحة أسماء كثيرة، لا يمكن حصرها.

الآن.. لم تعد "قضية المرأة" هي هاجس المرأة الواعية بمسؤولية الأدب والكتابة، صار هاجسها الإنسان والحروب والتمييز العنصري والفساد والعنف والمهجرين والإرهاب بشقيه الفردي والدولي، صارت بالكتابة تعالج مسائل القيم والفكر والوجود.

تنتمي الكاتبة إلى إحدى شرائح من ثلاث، (الأديبة المبدعة، أو الناقدة أو الأكاديمية)، لتتداخل وتتقاطع، والطبيعي أن يفوق الإنتاج الإبداعي الكتابة النقدية، لكن من غير الطبيعي أن يكون الفارق إلى درجة تجعل من النقد عاجزا عن مواكبة النتاج الإبداعي كما الحال، وهنا القصور النقدي يطال الجنسين. النتاج الإبداعي بكل أنواعه اليوم كبير جدا وغنيّ، بالتأكيد كمّا، وحتى كيفا بحالات فردية، تشير إليه المشاركات بالجوائز العالمية ونتائجها، إذا أخذنا أنها المقياس المطروح على الساحة حاليا، وفي شح القراءة النقدية التي لو توفرت لربما أبانت عن عدد أكبر من المبدعات. هذه النتائج التي أظهرت أن التميز الإبداعي لم يعد قاصرا على جنس بعينه. أما الحديث عن إمكانية وصفنا لكاتبة عربية بالمفكرة، فهذا سؤال فيه بعض غرابة مع احترامي للسائل!

إذا كان الفكر هو تفعيل العقل وإعماله في مشكلة أو قضية ما، للوصول في كل ما يتعلق بتفاصيلها وتوابعها، وإذا كان رؤية، ما دامت الفكرة هي الصورة الذهنية للشيء، فإن كل الكاتبات المبدعات والأكاديميات، وخاصة الناقدات، صاحبات فكر وإن تفاوتن في ذلك، بالطبع ليست كل صاحبة فكر مفكّرة بالمعنى الفلسفي، لكنها تلك التي حققت المفهوم الفلسفي الذي يرتقي بالمفكر إلى مناقشته للقضايا بأكثر عمقا وتعقيدا، فعلى المفكر لينصف طرحه ألا يخضع للفكرة المسبقة فنحن عرفنا الله بالعقل، وأن يتحرر من القديم والمحدث، وأن تكون نظرته إنسانية كونية، لا تعني بمجتمع، إلا إذا كان هذا المجتمع هو نفسه محل النقد، وإذا كان المفكر ذا رؤية وتطلعات نقدية عالية بفعل مهني عال وإن لم تتحرر بعض مفكراتنا من سلطة الفكرة المسبقة، فهنا نجد عددا قد لا يعتد به من المفكرات، لكن لا يمكننا حصره في واحدة! سأذكر للمثال وليس للحصر نماذج منهن لحقب ورؤى متباينة، لا يهمنا هنا إلا كونهن مفكرات، بغض النظر عن طبيعة هذا الفكر اتفقنا معه أو اختلفنا، فأمام الطرح النير للفكر علينا ألا ننجرّ لتلك التفاصيل الصغيرة فتعيقنا، فليتعامل كل منا بما يناسبه منها بعيدا عن الجوهر، وعندما نتحدث عن الفكر علينا أن ندرك أن الله دعا إلى العلم، ولا يتأتى هذا إلا باستخدام العقل.

سأبدأ بالدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) أستاذة التفسير، ولها أعمال أدبية وروائية، وأول من حاضر بالأزهر، وخاضت معركتها ضد التفسير العصري للقرآن، درّست الشريعة بجامعة القرويين بالمغرب، وفي عين شمس، والإمارات، والرياض، والخرطوم، وأم درمان، ووصلت مؤلفاتها إلى أربعين كتابا.

لوحة الفنانة سارة شما

وحين نتناول المفكرات العربيات لا بد أن نذكر الدكتورة "نوال السعداوي"، الأديبة والمبدعة والطبيبة والباحثة في نقد الأديان، وحقوق الإنسان، أيضا وصلت مؤلفاتها إلى أربعين إصدارا.

الكاتبة والمفكرة الجزائرية رزيقة عدناني أستاذة الفلسفة التي تفرغت للكتابة، متخصصة في علوم الفلسفة والمعرفة والإسلام، تدعو للمصالحة، وتناقش العنف والحداثة والحرية، ولها مؤلفات عن العقل والفكر والفلسفة.

المفكرة الفيلسوفة المغربية حورية سيناصر عالمة الرياضيات، نالت دكتوراه الدولة من جامعة السوربون، ودرّست فيها، وهي مديرة أبحاث في المركز الوطني الفرنسي، ومديرة دار "فرن" المهتمة بالبحوث العلمية الفلسفية. المفكرة حورية سيناصر رغم ثقافتها الفرنسية فهي تؤمن بهويتها العربية المغربية.

ناقدة السرد

هدى الهرمي
شاعرة تونسية

لا يخفى على أحد ما حققته المرأة العربية في السنوات الأخيرة من غزارة الإنتاج الأدبي بصفة تكاد تكون لافتة للنظر خصوصا في السرد والشعر وحتى في البحوث والدراسات الفكرية وهذا الأمر يعد انتصارا للأدب النسوي الحديث رغم العوائق والتقاليد السائدة في فترة ما ولا تخلو منصات التتويج من جوائز منحت للمرأة العربية المبدعة ليختزل حكاية مثابرة وتميز منقطع النظير.

إن الإبداعات الأدبية النسوية بجميع أصنافها قد حققت نقلة نوعية من حيث الكمّ خصوصا وتقييم ذلك يظلّ بعهدة الإصدارات ومدى إشعاعها في الوطن العربي إذ تتجاوز الحدود الضيقة لتحلق هنا وهناك وتصل إلى القارئ العربي، وهناك العديد من الأسماء اللامعة التي فرضت بصمتها الخاصة وإنتاجها الغزير في الساحة الأدبية، لكن في خضم كل هذا، أعتقد أن النقد الموازي محتشم نوعا ما من حيث الإضاءات والتحليل الأدبي. وتقييم الأعمال النسوية بقي حكرا على الرجل الذي بدوره تحكمه بعض المرجعيات والأيديولوجيات النمطية في حق هذا الجنس الأدبي المصنف بأنه أدب نسوي إلى حدّ تقزيمه أحيانا والإخلال بشروط النقد النزيه.

أظن أن المرأة الناقدة تسعى بصفة حثيثة من أجل إرساء نقد فكري وحداثي دون تقسيم مصطلح نسائي ومصطلح ذكوري مما انعكس على اهتماماتها النقدية لكن لا يمكننا أن ننكر أن المرأة بطبيعتها الأنثوية مختلفة عن الرجل وتجنح إلى التفاصيل الدقيقة والفعل الحكائي، لذلك اشتغلت على النقد السردي أكثر من كل شيء، وبالتوازي نشهد عزوفها عن النقد السينمائي والتشكيلي. طبعا تظل هناك استثناءات مما يسِم تجربة بعض الناقدات بتنوع اهتماماتها وتعدد اشتغالاتها رغم أن عددهن ضئيل.

أسئلة في صلب المسألة

ريمة راعي
كاتبة سورية

قد يبدو الحديث عن غياب المرأة المفكرة أو الناقدة في البلاد العربية نوعاً من الترف، أو لعله حديث غير واقعي في ظل ما تعيشه المرأة اليوم بشكل خاص، والمجتمع بشكل عام، وطبعاً هذا غير مرتبط فقط بالأحداث التي شهدتها المنطقة في الفترة الأخيرة (على الرغم من أهمية تأثيرها)، وإنما مرتبط بالتحولات التي شهدتها المجتمعات العربية على الصعيدين الثقافي والاقتصادي منذ عقود، وهذا يحتاج إلى مجلدات لتشريح الحالة والوقوف على أسباب التراجع في مناح مختلفة، وليس فقط غياب نساء مفكرات أو ناقدات. ولكنني سأحاول إظهار بعض النقاط التي قد تكون مفتاحاً نحو الولوج إلى تشخيص الحالة وبالتالي الوصول إلى نتائج:

لوحة للفنانة مايسة محمد

المرجعيات الدينية والمجتمعية التي جعلت النسبة الأكبر من النساء مكتفية بالتبعية للرجل، وأخذ دور المنفّذ لإرادته متنازلة عن دورها خارج نطاق الزوجة والأم. أما من هن خارج هذه الدائرة (التبعية) فقد أصبحن أسيرات لهذا الواقع ومنخرطات في تكريسه من باب التماهي المصلحي معه، أو أنهن رافضات له ولكنهن غير قادرات على الخروج من أطره العامة خشية الثمن الكبير الذي يمكن أن يدفعنه، والمؤسف أن النساء هنّ أول من سيهاجمنهن، ناهيك عن النبذ المجتمعي الذي ستتعرض له المرأة التي تحاول أن تفكر خارج الصندوق، وليس هي فحسب، بل أسرتها كاملة؛ لذلك ستفضل الانكفاء على دفع نفسها وعائلتها إلى مرمى نيران المجتمع.

الوضع الاقتصادي الذي جعل المرأة العاملة تذهب في اتجاه الاختصاصات التي تحصل منها على مقابل مادي، وبما أن "الفكر" هو حالة اقتصادية خاسرة مادياً؛ فلن تجد امرأة تختار العوز كرمى للفكر، وهذا يوصلنا إلى النهج الذي تقوده الحكومات العربية، ويدفع بالمجتمعات إلى البحث عن فرص للعيش عوضاً عن التفكير بإنتاج تلك الفرص من خلال طرح فكري خلّاق. وهكذا فإن المعادلة القائمة على أن الإنتاج الفكري يساوي الفقر أحياناً والعيش بالحدود الدنيا غالباً، تجعل كل من يفكر قليلاً في هذه الاتجاه ينأى بنفسه مباشرة، وهنا تحضرني المقارنات السطحية التي يجريها البعض بين الشرق والغرب، مقتنعين بأن الغرب هو "المنتج الخلاق" ونحن "الكسالى الاستهلاكيون"، وهذا لا يتعدى كونه نظرة سطحية، فالإنتاج الفكري في الغرب (على أنواعه) يقابله مردود مادي جيد وفي كثير من الحالات يكون سبباً في الثراء، وهذا ما يجعل من التوجه نحو هذا النوع من الإنتاج فرصة حقيقية لكسب المال، وهذا أمر لا يمكن تجاهله كمعادلة، ولو كان هذا الإنتاج ليس مجدياً مادياً في البلاد المتطورة لما كنا لمسنا كل هذه الفروقات.

الإعلام بشقّيه الخاص والعام لعب دوراً هاماً في تهميش الحالة الفكرية وإظهارها كحالة خشبية وبالية غير ذات جدوى.

أبعد من الثنائيات

نورة البدوي
كاتبة تونسية

هل يمكن أن نربط ما أنتجته المرأة العربية بالأزمنة الأمس واليوم والغد؟ في كينونة هذه المرأة المبدعة تحرر من الأزمنة وبالتالي غوص في جميع المجالات الإبداعية من أدب وفن تشكيلي وسينما وشعر، فهي حاضرة دائما لتترجم الواقع الإنساني للمجتمعات العربية بمختلف هزاته وأزماته وأفراحه وأتراحه.

ممّا لا شك فيه أن المسار الإبداعي للمرأة العربية في تطور مستمر تطور العصر وانعكاساته ورهاناته على المجتمعات العربية فهي دائمة الحضور على مرّ الأزمنة والعصور بل هناك مصادر قديمة أرّخت لدور النساء معرفيا في عدة مجالات مثل كتاب "الإصابة" للحافظ بن حجر الذي ترجم لـ543 ألف امرأة بينهن فقيهات ومحدثات وأديبات، كما ترجم السيوطي في كتابه "نزهة الجلساء" لسبع وثلاثين شاعرة وغير هؤلاء كثر من الذين أشادوا بمشاركة المرأة في الإنتاج الإبداعي الثقافي منذ القدم.

من خلال ما تقدم أردت إبراز أن نتاج المرأة العربية في كل المجالات الثقافية موجود عبر الأزمنة غير أن هناك اليوم زخما إنتاجيا لها في كل المجالات الإبداعية: الأدب والمسرح والشعر والفن التشكيلي والموسيقى والسينما، وفي هذه الحركة إثراء للمشهد الإبداعي الثقافي وإثراء للساحة الوطنية وإثراء للقراءات والسرديات على حدّ سواء.

ففي المجال الأدبي هناك أسماء لها أثرها وبصمتها الروائية كخيرية بوبطان ومسعودة بن بوبكر وآمنة الرميلي من تونس، كما توجد أنعام كجى جي من العراق وصابرين فرعون من فلسطين وفاطمة علي من المغرب وغيرهن من الأسماء، وكل منهن لها نفسها الروائي وتشكيلاتها للحس الجمالي والبعد المعرفي.

وبكل أسف، فالنقد شحيح جدا في الساحة الأدبية وإن كانت هناك بعض الأسماء النسائية التي لها حضورها في هذا المجال لكن الإصدارات الكتابية أو الروائية والشعرية فاقت النقد، وكما نعلم جميعا لقد أصبحنا اليوم نتحدث عن موت الناقد والنقد.

ولذلك أصبحنا للأسف نقرأ روايات دون معنى أو بالأحرى الفراغ عنوانها الأصلي، فأن نحمل صفة مفكرة أو مفكر فهذا جميل، ولكن على من نطلق هذا الوصف ومن سيطلقه؟ هنا يأتي دور الناقد والقارئ فالنص أو الرواية تكتب مرتين مرة أولى للكاتبة وأخرى للقارئ والناقد.

من هنا يأتي هذا التوصيف من باب قدرة الكاتبة على إنتاج منظومة من التفاعلات داخل الرواية ما ينتج وظائف تواصلية ووضع القارئ والنقد في الصورة ومن هنا يكون النقد والتأويل في إعطاء صفة المفكرة.

لقد تجاوزت المرأة في الكتابة مسألة الثنائيات امرأة/رجل بل أصبحت الأدوار واحدة وهذا من خلال رصد الواقع، فالكتابة ليست في انفصال عن الواقع وهذا بدوره انعكس على المرأة الناقدة.

، فالمرأة الناقدة تجاوزت تلك الهالة حول صراع المرأة والرجل وأصبحت تغوص في مضامين النص والعنوان وغلاف الكتاب وتشكيلات المعنى وبناء اللغة التواصلية مع القارئ.

لوحة للفنانة مايسة محمد